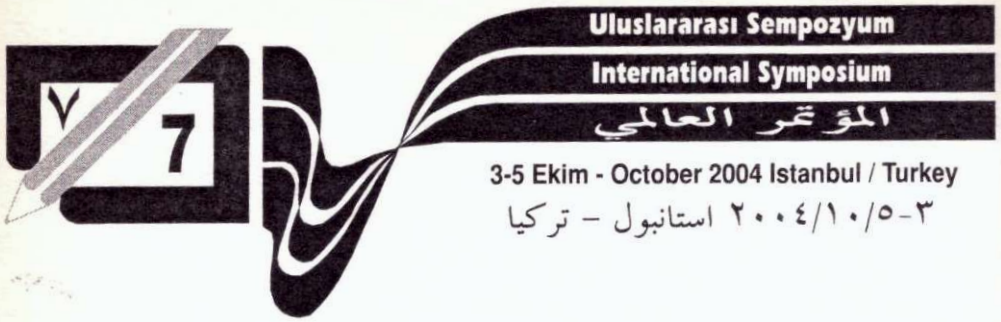

المؤتـــمر العالمي الســـابع
لبديع الزمان سعيد النورسي

ممارسة حياة ايمانية فاعلة

في سلام ووئام في عالم متعدد الثقافات
من خلال رسائل النور

الطبعة الأولى
١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م
Ekim 2004
الترقيم الدولى
ISBN: 975-269-043-2
شركة نسل للطبع والنشر والتوزيع

الوظيفة الاجتماعية لمقاصد رسائل النور

– دراسة تحليلية –

الأستاذ الدكتور عمار جيدل
جامعة الجزائر

تستمد رسائل النور فاعليتها من الارتباط الوثيق بين المقاصد ووظائفها الاجتماعية، بحيث تبدو الرسائل بمعزل عن تلك الأبعاد نصا مهملا كسائر النصوص المبثوثة في دنيا البشر، من هنا عدّ بحث الوظائف الاجتماعية من متطلّبات الحديث في المقاصد من الناحيتين النظرية والعملية، ليست المقاصد معارف تحشى بها الرؤوس ويتباهى بها في المجالس أو تزيّن بها النصوص، بل هي لب أبعاد النص نفسه ولب ذلك اللب وظائفه الاجتماعية، من هذا المنطلق كان حديثنا عن الوظائف الاجتماعية لمقاصد رسائل النور حديثا في عمق المضمون ومقاصد مقاصده.

تتوزّع مقاصد رسائل النور على نصوصه بإحكام، يتجلى فيه التناغم والتكامل والشمول، بحيث يستغرق العالمين المادي والمعنوي، كما أنّه يستغرق حياة الإنسان النفسية والاجتماعية والحضارية، ...

الإحاطة بكل تلك العناصر تأباه طبيعة المؤتمر والوقت المحدد لكل ورقة، من هذا المنطلق سينصب جهدنا على بيان بعض مظاهر الوظيفة الاجتماعية المستفادة من مقاصد رسائل النور.

لا خلاف بين قرّاء رسائل النور فضلا عن عشّاقها بأنّ مؤلّفها يرمي إلى تحقيق مقصد رئيس ومجموعة من المقاصد الفرعية البحت، وأخرى فرعية بالنظر إلى المقصد الرئيس، ولكنها كلية باعتبار تحقيقها لمراتب متعلّقة بالضروري من الدين؛ فهي بهذا الوجه كلّية أصلية تعبّر عن مرتبة الضروري أو ما يقرب من معناه، وقسم آخر منه كلي ولكنّه دونه من جهة الرتبة؛ فهو أقرب إلى الحاجي منه إلى الضروري[1]، كتلك التي تتوقّف وظيفة التبليغ على تحقّقها، وقسم من رتبة ثالثة يمكن إلحاقه برتبة التحسيني، بحيث يؤدي فقده

إلى العسر في المعالجة بشكل إجمالي؛ فالأول كجعل الشريعة في أصل وضعها مراعية لأوضاع الناس، جالبة لسعادتهم في الدارين(الدنيا والآخرة)، قال الأستاذ عبد الله دراز في تعليقه على كتاب الموافقات للشاطبي"القصد الأول هو أنّها(الشريعة) وضعت لمصالح العباد في الدارين"[2]، والثانية كمقصد الإفهام من وضع ألفاظ الشريعة وصيغ تبليغها، والثالثة ما يتطلّبه اليسر بجميع أشكاله.

يتوجّه أوّلها إلى بيان أصل قصد الله في وضع التكاليف الشرعية المستفادة من القرآن الكريم والسنّة الشريفة؛وقد عمل بديع الزمان على إثبات ذلك الأصل وتوضيحه بالتركيز الكبير على بيان **أنّ من أهمّ ما ترمي إليه رسائل النور(المعبّرة عن الشريعة)إثبات ارتباط الشريعة بمفهومها العام بمصالح العباد المعنوية والمادية؛ فمصالحهم المعنوية والمادية لا تحقق بطريقة إنسانية هادفة واقتصادية إلا بالشريعة الغرّاء**، يؤكّد هذا المعنى قوله رحمه الله"**إن لمتصّرف هذا العالم حكمةً عامةً عالية، بشهادات رعاية المصالح والفوائد في كل شيء، وبدلالات الانتظامات والاهتمامات وحسن الصنعة في جميع المخلوقات. فهذه الحكمة الحاكمة في سلطنة الربوبية، تقتضي تلطيف المطيعين الملتجئين إلى جناحها.. وكذا يشاهد إنّ له عدالة محضة حقيقية بشهادات وضعه كل شيء في الموضع اللائق، وإعطاء كل ذي حق حقه الذي يستعد له؛ وإسعاف كل ذي حاجة حاجته التي يطلبها – لوجوده أو حفظ بقائه – وإجابة كل ذي سؤال سؤاله. وبالخاصة: إذا سئل بلسان الاستعداد أو بلسان الاحتياج الفطري أو بلسان الاضطرار.. فهذه العدالة تقتضي محافظة حشمة مالكيته، وربوبيته، بمحافظة حقوق عباده في محكمة كبرى؛ مع أن هذه الدار الفانية أقل وأحقر وأضيق وأصغر من أن تكون مظهراً لحقيقة تلك العدالة؛ فلابد حينئذ لهذا الملك العادل والرب الحكيم ذي الجمال الجليل والجلال الجميل من جنة باقية وجهنم دائمة.**"[3]

كما أورد ذلك المعنى في خاتمة تعليقه على دليل من الأدلة على العقيدة الإسلامية؛ فيقول في بيان المعنى المشار إليه:"وزبدة هذا الدليل هي: إتقان الصنع في النظام الأكمل في الكائنات، **وما فيها من رعاية المصالح والحكم**، إذ النظام المندمج في الكائنات، **وما فيه من رعاية المصالح والحكم، يدل على قصد الخالق الحكيم وحكمته المعجزة، وينفي نفياً قاطعاً وهم المصادفة والاتفاق الأعمى.**"، معللا المسألة بالإتقان الذي لا "يكون

دون اختيار. فكل علم من العلوم الكونية شاهد صدق على النظام، **ويشير إلى المصالح والثمرات المتدلية كالعناقيد في أغصان الموجودات، ويلوح في الوقت نفسه إلى الحكم والفوائد المستترة في ثنايا انقلاب الأحوال وتغيّر الأطوار.** "[4]

ولعلّ أوضح شاهد على تأكيد تلك الحقيقة ما ورد عنه في المجلّد الثامن من رسائل النور، قال رحمه الله:

"(والخلقة مستلزمة لنتيجتها وهي الإنسان) نعم (لولاك لولاك لما خلقت الأفلاك) يدلّ على أنّ الغاية من الخلقة ونتيجتها الحياة وذوو الحياة وأشرفهم الإنسان فهو نتيجة الخلقة."[5]

من منطلق ما سبق بيانه كان المقصد الأعظم لرسائل النور **خدمة الإنسان**، ولا يخدم الإنسان نفسه إلا إذا اكتشف وظيفته التي بيّنتها الرسائل بنور القرآن الكريم؛ فتخاطبه الرسائل قائلة:"أيها الإنسان!**المقصد الأسمى** من خلق هذا الكون هو قيامك أنت بعبودية كلية تجاه تظاهر الربوبية، وأنّ الغاية القصوى من خلقك أنت هي بلوغ تلك العبودية بالعلوم والكمالات."[6]، وطريق بلوغ ذلك التحقق والتكمّل بالحقائق الإيمانية، لهذا كانت الحقائق الإيمانية المقصد الأول في سياق آخر [7]، ذلك أنّها تدفع البشر إلى تحقيق التكليف الشرعي الذي تعدّ العبودية مضمونه الرئيس.

يستعمل بديع الزمان العديد من المصطلحات التي تصب في الدلالة العامة للمقصد أو المقاصد في رسائل النور، إذ يستشف منها الأهداف المرجوة منها، وبطريق الاستقراء غير التام، خلصت إلى مجموعة هامة تخدم الغاية المرسومة، منها على سبيل المثال لا الحصر:المقصد والمقاصد، الهدف، الأهداف، الفائدة وقد يشار إليها أحيانا بالعلّة الغائية، أو النتيجة، ...مع شيء من التحفّظ في استعمال المصطلح سواء في دلالاته العامة أو دلالته في أدبيات بديع الزمان سعيد النورسي.

يتعلّق موضوع البحث بجزئية محدّدة مضبوطة، تدور في فلك خدمة الإنسان من حيث كونه كذلك، أي تخدم مطلق الإنسان بصرف النظر عن الأعراض التي يتلبّس بها أو تتلبّس به(اللون، العرق، اللغة، الدين، ...)، فلا فرق في أصل أهداف تبليغها بين إنسان وآخر، ذلك أنّ الأهداف المراد تحقيقها من الإنسان المسلم هي عين خدمة

الإنسانية بما تؤسسه من معاني في قلبه وعقله تيسّر له التعامل بمحبة وشفقة وأخوة مع الخلق أجمعين، لهذا كانت خدمة الأسرة الإسلامية في رسائل النور عين خدمة الأسرة الإنسانية، كما تتوجّه في ذات الوقت بخطاب تندرج في سياقه الأسرة الإنسانية.

المقاصد المبثوثة بإحكام في رسائل النور لها وظائف جليلة كثيرة، منها الوظيفة الاجتماعية المنتظرة والمطلوب تحقيقها في الأسرة الإنسانية، ترجع الوظيفة الاجتماعية فيها إلى خلفية فكرية تؤسس لها رسائل النور بمعاني مستفادة من نور نصوص الكتاب والسنّة المطهّرة، وتسعى إلى تحقيق إشعاعها على المستويين العقلي والقلبي، من هنا كانت الوظيفة الاجتماعية في الأسرة الإسلامية منشأ نجاحها وبثّها في الأسرة الإنسانية، وبهذا الصدد ركّزنا بحثنا على الوظيفة الاجتماعية لمقاصد رسائل النور، وتحقيقا لذلك المسعى وضعت الخطّة الآتية:

أولا – المقاصد في الأسرة الإسلامية:

– إنقاذ الإيمان والاعتصام بالقرآن.2 – الإيمان والأخلاق.3 – خدمة الإيمان. 4 – نيل مرضاة الله.5 –حصول صحوة إسلامية بمضمون اجتماعي.

ثانيا : الوظيفة الاجتماعية في الأسرة الإنسانية:

1 – تعطي الحياة معنى. 2 – دفع الأمراض الاجتماعية. 3– الأخوة والمحبّة والتضحية.4– الشفقة والمحبّة.5 – العمل مفتاح الحل الاجتماعي.6 – القيام بوظيفة الخدمة.7 – إنقاذ الإنسان والاستجابة لحاجاته.8 – تجاوز الهلاك.9 – تليين القلوب.

أولا: الوظيفة الاجتماعية للمقاصد في الأسرة الإسلامية:

مرّ معنا التأكيد على أنّ الوظيفة الاجتماعية لمقاصد رسائل النور تستند إلى خلفية عقيدية، فأساس التحريك الاجتماعي على وفق مراد الله يرجع إلى الإيمان وجودا وعدما، من هنا كانت المطالب الإيمانية ذات البعد الأخلاقي أس أساس فاعلية الوظيفة الاجتماعية، وكانت جهودنا منصبّة في مطلع البحث على الإيمان والاعتصام بالقرآن بوصفهما أهم عوامل فاعلية الفعل الاجتماعي.

1 – إنقاذ الإيمان والاعتصام بالقرآن:

عمدة عمد وظائف رسائل النور إنقاذ الإيمان والاعتصام بالقرآن الكريم، ذلك أنّه يمثّل رأسمال كل متاجرة علمية أو عمل إصلاحي؛ فلا يتصوّر إصلاح اجتماعي أو فكري أو ...إذا كان الإيمان مهددا، إنّه يمثّل فسيلة التغيير وأصل أصوله، إنّها تمثّل آخر قلاع المقاومة الفكرية، لهذا لخّص الأستاذ جهده في الحفاظ على الإيمان غضا طريا، وذلك بإنقاذه من خلال العمل على الاعتصام بالقرآن الكريم في كل الأحوال ومهما كانت الأهوال، وهذا يفرض الحذر الشديد من الاستجابة لضغط الاستفزاز السياسي أو المعرفي أو... سواء كان ترهيبا أو ترغيبا.

مكّن الأستاذ لتلك المعاني من قلوب تلاميذه، إذ كانوا رغم الصعاب – شدّة المراقبة، والترصّد، ...– يتقاطرون إلى زيارته، ويتجاذب معهم الحديث بما ينسجم ومستوياتهم الفكرية والثقافية، مركّزا جهده على بيان أهمية الإيمان في الوقت الحاضر، مذكّرا بأنّ القصد الأساس لرسائل النور **تقوية الإيمان** وصدّ الإلحاد الذي يهدد الأمة والوطن، **وأنّ أهم قضية في الوقت الحاضر إنقاذ الإيمان وتقويته بالاعتصام بالقرآن الكريم.**

و أكّد الأستاذ أنّ رسائل النور تحصر نظرها في هذا المقصد.ولهذا يتكالب عليها الأعداء من الملحدين ويختلقون الافتراءات الظالمة والإشاعات المغرضة، سعيا منهم لجرّهم إلى معارك أعدوا عدّتها ووقتها ومكانها، ورغم كل محاولات الترويع والترويض والاستفزاز و...أكّدوا – عملا بوصية الأستاذ — بأنّه لا محيد عن العمل الإيجابي البناء وحده، إذ في أيديهم نور يفتقده صولجان السياسة. قصروا جهدهم على البذل المستمر في هذا الطريق، طريق يبذل لتحقيق غاية الجهد مؤسسين مسعاهم على الإخلاص وابتغاء مرضاة الله وحده، وهو مصدر قوة النور. وبذلك يكونون أهلا لنيل العناية الإلهية التي تحمي خدماتهم ما داموا مخلصين يعملون عملاً إيجابياً بناءً.[8]

وبإنقاذ الإيمان تحقق مدرسة رسائل النور تصالحا بين أهل المدرسة الدينية والمدرسة الحديثة وأهل الزوايا التكايا وتجعلهم يتحدون – في الأقل– في خدمة مقصد إثبات الإيمان وتثبيته، وذلك بما تحدث فيما بينهم من الميل وتبادل الأفكار.[9]، وذلك محرّك التقارب الاجتماعي.

وقد بيّن الأستاذ وكرّر في أكثر من موقع أنّ تأثير رسائل النور قويّ؛ فقد كشفت منذ خمسين سنة عن أنّها تمثّل أقصر طريق لإنقاذ الإيمان والمعجزة المعنوية للقرآن الكريم في هذا العصر، بصرف النظر عن موطن حركتها، سواء تعلّق الأمر بالبلدان العربية أو الأعجمية أو الغربية، حتى بلغ إلى مسامعه خبر مفاده أنّ طلاب النور في تلك الأماكن يزيدون ثلاثة أضعاف على ما ثبتته المحاكم هنا، ومازالت تلك الخصيصة حيّة، فمازالوا يتكاثرون إلى يوم الناس هذا، لذا صرّح النورسي بأنّه اضطر روحيا إلى بيان ومشاهدة هذه النتيجة العظيمة وهو على عتبة القبر.[10]

تحقيق إنقاذ الإيمان يهيئ النفوس للتكيّف الاجتماعي مع المعطيات الجديدة أو المتجددة بما ينسجم والمحافظة على الإيمان أو التمكين له في حياتنا الاجتماعية والفكرية والتربوية.

2 – الإيمان والأخلاق:

ليس المقصود بالإيمان كلمات تلاك ثم ترمى، لا تصنع وعيا أو لا تكوّن حافزا على فعل الخير، بل يرمي صاحبه إلى إنقاذ الإيمان من الانفصال عن العمل، لهذا ركّز الشيخ على ربطه بالأخلاق والعمل النافع، فكان من ظاهر الانتفاع بتلك الرسائل الوضوح والتلطّف مع الخلق أجمعين بما فيها السلطة الحاكمة؛ فلا يقبل مسلك رسائل النور تحريضاً للشعب ضد الحكومة ولا دعوة لتأسيس جمعية سرية تقوم بإخلال الأمن، وبذلك تبتعد عن كل ما من شأنه أن يعكّر صفو العلاقة بين الحاكم والمحكوم، مركّزة جهدها على هدف وحيد وخدمة وحيدة هي إيفاء خدمة مقدسة للإسلام ولاسيما خدمة مقدسة للأمّة الإسلامية من ناحية الإيمان والأخلاق، تلك هي أم الوظائف وهي سبيل الحصول على رضى الله تعالى.

وفاعلية ذلك المسلك مرتبطة بالأساس بعدم اشتغال قلوب أتباعها بأهداف وغايات دنيوية، لأنّ قلوبهم مشغولة بالإيمان وبأمور الآخرة، لذا فإنّه لم يخطر ببالهم أبداً ما أتهمهم به المخالفون والمناوئون لرسالتهم في مضمونها الفكري وبعدها الأخلاقي، لهذا لا يتحمّل طلاّب النور تلك الاتهامات[11]، لأنّهم قطعوا صلتهم بالتيارات السياسية، وبذلوا طاقاتهم من أجل الحقائق الإيمانية وحدها[12]، وبذل الوسع لتحقيقها يضع فرشة رئيسة

للتفكير الاجتماعي، إذ ترتبط الفاعلية الاجتماعية في أصل وضعها بدرجة حضور الأخلاق في الممارسة اليومية للمؤمن، بحيث لا تقبل الرسائل الفصل النكد بين الإيمان والخلق، والإصرار على هذا الأمر يؤكّد مركزية المطلب الاجتماعي وبالتالي الوظيفة الاجتماعية لمقاصد رسائل النور، كما أنّ الأخلاق المرتبطة بالإيمان رسالة اجتماعية، ذلك أنّ الأخلاق تظهر في موقفك من الإنسان سواء كان موالفا أو مخالفا، وبهذا يظهر أنّ الأخلاق رسالة في الوظيفة الاجتماعية ليس إلاّ.

3 – خدمة الإيمان:

يثبّت الإيمان المحقق بخدمته المستمرة الدؤوب المتجلية في الأعمال والأقوال والأحوال، ولعلّ من أظهر سبل تحقيقه، قراءة رسائل النور، ذلك أنّ تحصيل العلم فيها شيء مبتكر وأصيل في الحقيقة ولا يوجد ما يشابهه؛ لأنّ أيّ تحصيل علمي آخر تكون الغاية من الاستمرار فيه هي المنفعة المادية أو الحصول على موقع ما. أي أنّ الدوام لهذه الدروس لا تكون عن رغبة بل في الغالب للحصول على منافع مادية أو على شهرة. أمّا رسائل النور فتشبه جامعة حرة مفتوحة، والذين يداومون في هذه الجامعة بقراءة رسائل النور لا يبتغون أي هدف دنيوي بل يبتغون خدمة الإيمان والقرآن فقط لا غير.[13]

وخدمة الإيمان ليست قضية شخصية ذات بعد فردي محض، بل هي في أصل وضعها رسالة اجتماعية، بحيث إذا تعطّل ذلك البعد تعطّل ادّعاء خدمة الإيمان، من هذا المنطلق انتهى النورسي وبنظرة استشرافية مستقبلية إلى أنّه"سيأتي زمان لا يمكن للقدرات والقوى الشخصية والجزئية أن تقاوم وتصدّ هجوم أعداء رهيبين[14]، ولهذا سيضطر كل من أراد النسج على منوال مسلك سعيد النورسي في التغيير الاجتماعي إلى البحث بحثا حثيثا عن الذين يملكون خطاً جيداً ليشاركهم في خدمته فيشكلون معاً آلاف الأقلام التي **تحوّل تلك الخدمة الشخصية الجزئية إلى خدمة كلية عامة قوية، إذ يجتمعون حول تلك البذرة، بذرة النور، مثلهم كمثل اجتماع الماء والهواء والنور، ويمدّون تلك الشجرة المعنوية بالعون**؛ وفضلا عن هذه الحكمة، **فإن إذابة أنانيته في حوض الجماعة المبارك كإذابة قالب الثلج نياً للإخلاص الحقيقي، حكمةٌ أخرى تدفع لخدمة**

الإيمان.[15]الذي يعد أكبر غاية وأهم هدف للبشرية على سطح الأرض والسعادة القصوى[16]

4 – نيل مرضاة الله:

يتحرّك الإيمان اجتماعيا بطلب مرضاة الله التي تعدّ قوّة دفعه الداخلي، إذ يعود إليها تنشيط الهمم لأجل البذل والعطاء المستمرين، كان هذا في الماضي وهو مسلك الحاضر، ولا سبيل لحركية الإيمان الاجتماعية إلا بحيوية هذا المحرّك – طلب مرضاة الله باستمرار في السر والعلن – ذلك هو سبيل " أجدادنا المؤمنين الذين رحلوا إلى الدار الآخرة لهم علاقة من الناحية المعنوية بهذه الدعوى العظيمة. "والدعوة التي حرّكتهم ما زالت بين أيدينا؛ فنحن اليوم نملك في أيدينا فرصة النسج على منوالهم ونيل ما نالوه واكتساب محبة أولئك الملايين من أهل الحقيقة ودعاءهم وشفاعتهم.

تجلت تلك الفرصة في الحقيقة السامية المسماة بـــ "رسائل النور" فهي أمامنا وبين أيدينا. تلك الرسائل التي تحوّل – بفعل نورها المستمد من القرآن الكريم – الغايات عن التعلّق بالمراتب والمقامات الدنيوية الفانية والسفلية وتربطها بالسعي الدؤوب لنيل رضى الله تعالى الذي هو السعادة العظمى والفرحة الكبرى والهناء التي ما بعدها هناء.

وجعل نيل مرضاة الله غاية يحفّز بفعل مضمونه الإيماني ووظيفته الاجتماعية الإنسان ترك الأخلاق الرديئة والهابطة ويجهزه بالإيمان ويجمّله بالفضيلة وبالمعاني والقيم السامية، يظهر ذلك في رسائل النور المبسوطة أمامكم وهى منبثقة من الإعجاز المعنوي للقرآن المبين الذي هو نور إلهي.

وقد عمل بديع الزمان على بيان تلك الحقيقة في أكثر من موقع، وأكّد بأسلوب لا لبس فيه أن غاية الغايات نيل مرضاة الله، وهي صمام الأمان وضابط توازن التصرفات الاجتماعية، بل ومكسبها بعدا إنسانيا منظورا في العاجل والآجل، يشهد لهذه المعاني قوله رحمه الله:"ما دام اكتساب الإيمان، والانتقال بهذا الإيمان في الدنيا إلى سعادة الدار الآخرة أهم غاية للإنسان، ومادامت رسائل النور تقدم – بفيض من القرآن – الحقائق الإيمانية وتقرب مئات الآلاف من قرائها ومستنسخيها إلى هذا الهدف، فلا مناص أمام عدالتكم السامية وحبكم للحقيقة إلاّ فهم الوجه القرآني، والوجه الحقيقي لرسائل النور

وتقدير قيمتها الحقيقية، **ومعرفة أنّ طلاب النور لا يسعون إلاّ لنيل رضى الله تعالى وانه لا هدف لهم سواه.**[17]

5 - حصول صحوة إسلامية بمضمون اجتماعي:

ترجع حيوية الأداء الاجتماعي للأسرة الإسلامية الكبرى إلى تحويل الإيمان من مجرّد مطلب فئوي أو طبقي إلى مطلب عام يشمل الأمّة برمتها، وهو الهدف الذي كان يصبو إليه بديع الزمان منذ نعومة أظفاره والأمل الذي كان يحدوه في حلّه وترحاله، إذ يصرّح أن مرغوبه هو **حصول صحوة إسلامية تعم العالم الإسلامي، ظهرت** هذه الروح العظيمة في مباحثاته مع مئات العلماء في شرقي الأناضول قبل مجيئه إلى استنبول، وتوضّح أكثر عند قدومه إليها حتى حيّر السياسيين.

و بقي معلّق الآمال بتلك الغاية سعيا منه للقيام بهذه المسؤولية الجسيمة والمهمة الثقيلة؛فكان يأمل أن يكون الإعلان عن الحرية والمشروطية في خدمة الشريعة الغراء، ويكون ذلك تباشير سعادة الأناضول والعالم الإسلامي قاطبة، حتى أنه ألقى الخطب في ضوء ذلك الأمل وكتب المقالات بغية تحقيقه، وظهر ذلك أيضاً في مؤلفاته ولاسيما في سنوحات، لمعات وغيرها مما ألفه، وكان لا يتوانى من التصريح أن أعظم صوت مدوٍ في المستقبل هو صوت القرآن العظيم[18]، وهو طريق تحصيل صحوة حيويّة وفاعلة ذاتيا، بما تحملها النصوص من بذور بقاء وديمومة اجتماعية لا تعطّلها الأهوال أو تغيّرها الأحوال، ما دام أهلها بها متشبثين ودونها مرافعين ولمضامينها مجسّدين.

يرمي حصول الصحوة بمضمونها الاجتماعي إلى التأسيس العملي التطبيقي للوظيفة الاجتماعية في الأسرة الإنسانية

ثانيا – الوظيفة الاجتماعية لمقاصد رسائل النور في الأسرة الإنسانية:

1 – تعطي الحياة معنى:

لا يمكن الخلوص إلى تقرير الوظيفة الاجتماعية للمقاصد إلا بإخراج المجتمع البشري من الفوضى والعبثية إلى رحاب الأهداف والمقاصد الإنسانية، ورأس ذلك أنّ المقاصد أسست لوظيفة اجتماعية تعطي الحياة معنى، ومن مظاهر المعنى أن يتحلى الإنسان

بصفات تخوّل له جعل خدمة الإنسانية عين تحقيق السعادة الشخصية، وتدليلا على المراد يبيّن النورسي أنّ الإيمان يعطي الوقت الميّت في أعين كثير من الخلق قيمة لا حصر لها وفائدة لا حدّ لها، كأنّه يؤسس إشارة لا عبارة إلى أنّ أسير شهواته أو فكره غير السويّ، يتحرر من أسره كما تحرّر المقيّد أو المسجون من أسره بفعل المعاني الإيمانية الممكّنة من القلب، ذلك أنّها كانت ومازالت وستبقى المبادئ الأساسية التي تعطي الحياة معنى، كأنّه يصرّح مخاطبا الأسرة الإنسانية:أيّها الناس يا من ترغبون في منح حياتكم معنى، فهذا سبيلها، سبيل أعطى السجين معنى في سجنه، ومن باستطاعته منح ذلك المعنى في مثل تلك المواقع والظروف القاسية له أن يمنح المعاني نفسها في ما شابهها من المواقع والظروف، وخاصة لمن رام تحرير نفسه من الأسر بمختلف أشكاله.

يشهد لهذه المعاني نصوص النورسي نفسه، منها قوله رحمه الله:"إنّ كلّ يوم من أيام العمر التي تمضي في السجن، يمكن أن يُكسب المرء ثواب عبادة عشرة أيام، ويمكن أن يحوّل ساعاته الفانية – من حيث النتيجة – إلى ساعات باقية خالدة.. بل يمكن أن يكون قضاء بضع سنين في السجن وسيلة نجاة من سجن أبدي لملايين السنين."[19]

وبتأسيس معنى للحياة تتجلى في تصرفات الإنسان وظيفة اجتماعية لذلك المعنى، إذ من نتائج ذلك المعنى الارتباط بالآخرة ومنها التأسيس العلمي والعملي للوظائف الاجتماعية من الإيمان بالقيامة؛فيرجع للعقل دوره المنوط به والمنتظر منه تحقيقه.

يعود التراحم – بمعناه ومضمونه الإنسانيين– بين البشر إلى الاعتقاد بالقيامة، "إذ الرحمة من أدلة القيامة والسعادة الأبدية؛ لأنّ الرحمة إنّما تكون رحمةً، والنعمة نعمةً إذا جاءت القيامة وحصلت السعادة الأبدية.وإلاّ فالعقلُ الذي هو من أعظم النِعَم يكون مصيبةً على الإنسان، والمحبة والشفقة اللتان هما من ألطف أنواع الرحمة تتحولان ألماً شديداً بملاحظة الفراق الأبدي."[20]

و بهذا يظهر جليا أن منح الحياة معنى يؤسس للوظائف الاجتماعية لمقاصد رسائل النور في الأسرة الإنسانية، ويجاوز العقلية العبثية التي تجعل الحياة مرتعا للشهوات، وتؤسس لذلك المعنى من زاويتين:

أولاهما مقاصدها المحققة في المؤمن وبذلك التحقّق تجعل خدمة الإنسانية هدفا شرعيا نبيلا.

ثانيتهما التأسيس لتلك المعاني في الأسرة الإنسانية بالدرس المستمر المستفاد من حياة الرسالي المتمثّل لمضامين الرسائل في حياته الفردية والاجتماعية.

2 – دفع الأمراض الاجتماعية:

ترمي رسائل النور إلى جعل حياة المسلم أنموذجا في تجاوز الأسقام الاجتماعية والتأسيس لدفعها عمليا؛فمن رأى من المخالفين اتّحاد الجماعات الدينية – على تنوّع مشاربها – في الهدف، تساءل عن أسبابه وغاياته، ومن رأى منهم شفقة ورحمة ومحبّة تساءل أيضا عن أصل ذلك، وبهذا يصبح تحقيق الوحدة محرّكا لوعي الآخرين ومثار تساؤلاتهم المشبعة لحاجاتهم الاجتماعية من جهة ودافعة لكثير من أمراضهم الاجتماعية من جهة أخرى.

تتجلى تلك الحقائق في الرمي إلى جعل اتحاد هدف الجماعات الدينية مقصدا وهدفا يرمى إلى تحقيقه، وهو طريق التأسيس لتجاوز مرض خطير أشار إليه بديع الزمان، بصيغة**"مالي وما عليّ فليفكر غيري"**[21]، وتجاوز ذلك الداء العضال الفتّاك يؤسس للتواصل بين المجموعات المكوّنة للأسرة الإنسانية على تنوّع مشاربها ومسالك تفكيرها، وبهذا نقدّم الدليل العملي-بعد النظري المشار إليه أعلاه- على أن من مقاصد رسائل النور دفع الأمراض الاجتماعية التي على رأسها الإهمال والتسيّب المشار إليه بصيغة **"مالي وما عليّ فليفكر غيري"**

و مرد دفع ذلك الدواء لأمراض فرعية كالحرص الذي يعد في رسائل النور معدن الخسران والسفالة ويؤسس لدفعها بالإخلاص والقناعة.

قرر هذا المعنى النورسي بقوله:"نعم، إنّ القناعة كنـــز للعيش الهنيء الرغيد ومبعث الراحة في الحياة، بينما الحرص معدن الخسران والســـــــفالة كما يتبين ذلك من الحديث الشريف: (القناعة كنـــز لا يفنى)، ...إنّ الحرص يتلف الإخلاص ويفسد العمل الأخروي؛ لأنّه لو وُجد حرص في مؤمن تقي لرغب في توجّه الناس وإقبالهم إليه، ومن

يرقب توجّه الناس وينتظره لا يبلغ الإخلاص التام قطعاً ولا يمكنه الحصول عليه. فهذه النتيجة ذات أهمية عظمى جديرة بالدقة والملاحظة."[22]

إنّها تؤسس لتجاوز الفوضى الموقعة في الاختلافات والموجدة للخرافات والمبالغات، ومرد ذلك عدم القناعة والاطمئنان بما خُلق في العالم من حسن وعظمة وسمو.والذي يعني الاستخفاف بالنظام بذوق فاسد. حاشَ لله.إنّ حسن الانتظام والعظمة والعلوم المودعة في حقائق العالم، التي كل منها أبهر معجزة من معجزات القدرة الإلهية في نظر العقل والحكمة، قد أبدعتها يد الحكمة الإلهية إبداعاً في غاية الروعة بحيث لو قورن بها ما يمرّ في خيال عشاق الخيال والمبالغين من حسن وكمال خارقين، لبقيت تلك الخيالات الخارقة، اعتيادية جداً. ولبدت تلك السنن الإلهية خارقة حقاً، في غاية الحسن ومنتهى الكمال والعظمة. إلاّ أنّ الألفة – التي هي أخت الجهل المركب وأم النظر السطحي – هي التي عصبت عيون المبالغين.[23]

3 – الشفقة والمحبّة:

النظر إلى الأسرة الإنسانية بعين الشفقة والمحبّة يوجب التلطّف مع الخلق من جهة وترتيب الأولويات من جهة أخرى، فالشفقة بالخلق من منظور محبّتهم يفرض النظر إلى عمق القضايا، ولفت النظر إلى ما يترتّب على اختياراتنا من مضاعفات ثانوية قد تضرّ بأصل مقصد تبليغ رسائل النور، من هذا المنطلق يؤكّد بديع الزمان على أنّ منهج رسائل النور – الذي هو عبارة عن: الشفقة والعدل والحق والحقيقة والضمير – يمنع بشدة الاشتغال بما يستفزّ المخالف أو يثيره، وبهذا منع مسلك الرسائل من التدخل بالأمور السياسية أو بالسلطة الحاكمة.لأنه إذا كان هناك بعض ممن ابتلوا بالإلحاد واستحقوا بذلك العقاب فإن وراء كل واحد منهم عّدداً من الأطفال والمرضى والشيوخ الأبرياء. فإذا نـــزل بأحد أولئك المبتلين المستحقين للعقاب كارثة أو مصيبة، فإنّ أولئك الأبرياء أيضاً سيحترقون بنارهم دون ذنب جنوه. وكذا لأن حصول النتيجة المرجوة أمر مشكوك فيه، لذا فقد مُنعنا بشدة عن التدخل في الشؤون الإدارية بما يخل بأمن البلاد ونظامها عن طريق وسائل سياسية."[24]

4 – الأخوة والمحبّة والتضحية:

يعدّ أنموذج الاتحاد والأخوة الإيمانية أرقى دليل على ما ترمي إلى تحقيقه رسائل النور، وجعل ذلك المقصد هدفا يقرر عمليا الأخوة الإنسانية والتضحية لصالح تلك الأسرة؛فالأخوّة الإيمانية – بما لها من خلفية نظرية – تؤسس للأخوة الإنسانية، وتوجب البذل المستمر من أجل صالح أفراد الأسرة، وطريق تحققه التعلّق بالشريعة وتمثّل خلفيتها العقدية ومضامينها الاجتماعية، لهذا عدّت جمعية الجنود المؤمنين أسمى جمعية وأقدسها في الوقت الحاضر، فجميع الذين انخرطوا في سلك الجندية المؤمنة المضحية ابتداءً من الجندي إلى القائد هم داخلون في هذه الجمعية.إذ إن أقدس هدف لأقدس جمعية في العالم هو الاتحاد والاخوة والطاعة والمحبة وإعلاء كلمة الله. فالجنود المؤمنون قاطبة يدعون إلى هذا الهدف.

يمثّل الجنود المراكز، فعلى الأمّة والجمعيات أن ينتسبوا إلى الجنود.و جعل الأمّة جنوداً في المحبة والاخوة.و هو هدف الاتحاد المحمدي الذي هو شامل لجميع المؤمنين فهو ليس جمعية ولا حزباً، إذ مركزه وصفّه الأوّل المجاهدون والشهداء والعلماء والمرشدون.([25])، وأولئك أصدق أنموذج وأكمل صورة للحياة من أجل إشاعة المحبّة والأخوة بين أفراد الأسرة الإنسانية ولأجلها، وطريقها التضحية من أجل تلك الأسرة الكبيرة.

5 – العمل مفتاح الحل الاجتماعي:

يؤسس مسلك رسائل النور لأهمية العمل في رسم سبل النجاح في الدنيا والفلاح في الآخرة؛فلا طريق للنجاح أو الفلاح بغير العمل، والعزوف عن ذلك الخط كسل وتواكل وليس من التوكّل والتفويض في شيء، ذلك أنّ " تفويض الأمر إلى الله في ترتيب المقدمات كسل، بينما في ترتّب النتيجة توكل.كما أنّ رضا المرء بثمرة سعيه وقسمته قناعة، يقوي فيه الرغبة في السعي، بينما الاكتفاء بالموجود تقاصر في الهمة.([26])

رسائل النور خطّة عملية وتطبيقية لأهمية العمل في التقدّم المادي والمعنوي الفردي والاجتماعي، إلاّ أنّ الحل الاجتماعي مرتبط أشدّ الارتباط بالعمل الفردي، ويعد أهم مظهر من مظاهره، إذ العمل الفردي الخالي من بعده الاجتماعي بعيد الصلة عن فلسفة

وفكر بديع الزمان، حتى غدت الوظيفة الاجتماعية عين المسألة الفردية وليست من مظاهرها فحسب، إنّ العمل وفق خطة رسائل النور يوجب وظيفة اجتماعية تظهر بشكل جلي في القيام بوظيفة الخدمة للأسرة الإنسانية.

6 – القيام بوظيفة الخدمة:

خدمة الأسرة الإنسانية أسمى الأهداف التي رامت رسائل النور التأسيس النظري لها من جهة وتقديم البرهان العملي على صحّتها من خلال تمثّل مقتضياتها من جهة أخرى، ويحقق ذلك المسعى بالقيام بوظيفة الخدمة فحسب. بينما النتيجة تعود إلى رب العالمين، وإنّنا مكلّفون ومرغمون على الوفاء بمقتضيات وظيفتنا.[27]

تلك الخدمة التي من مجالاتها العمل على إسعاد الأسرة الإنسانية بدعوتها إلى الإسلام الحنيف، ذلك أنّ القدير الجليل أعطى كلّ عنصر من العناصر وظائف كثيرة، ويُنشئ على كلٍ من تلك الوظائف نتائج كثيرة. فلو ظهرت نتيجة واحدة قبيحة ـــ أي شر ومصيبة وبلاء ـــ من عنصر من العناصر في وظيفة من وظائفه الكثيرة، فان سائر النتائج المترتبة على ذلك العنصر، تجعل هذه النتيجة الوخيمة في حكم الحسن والجميل، لأنها جميلة وحسنة إذ لو مُنع ذلك العنصر الغاضب على الإنسان من تلك الوظيفة للحيلولة دون مجيء تلك النتيجة الوحيدة البشعة للوجود لتُركت إذن خيرات كثيرة بعدد النتائج الخيرة المترتبة على سائر وظائف ذلك العنصر. أي تحصل شرور كثيرة بعدد تلك النتائج الخيرة، حيث أنّ عدم القيام بخير ضروري، إنّما هو شر كما هو معلوم. كل ذلك للحيولة دون مجيء شر واحد! وما هذا إلاّ منافاةٌ للحكمة. وهو قبح واضح، ومجافاة للحقيقة، وقصور مشين. بينما الحكمة والقدرة والحقيقة منـــزهة عن كل نقص وقصور.[28]و لعلّ على رأس الخدمة إنقاذ الإنسان والاستجابة لحاجاته.

7 – إنقاذ الإنسان والاستجابة لحاجاته:

رسائل النور جعلت خدمة مطلق الإنسان أسمى أهدافها وغاياتها؛فبيّنت أن الحكمة الإلهية المستفادة من كتاب الله وسنّة نبيّه صلى الله عليه وسلّم لا يمكن أن تهمل العدالة بما لها من حاجة عظمى في الدنيا أولا والآخرة ثانيا، وما يحققان من الاستجابة لحاجة البقاء لأسمى مخلوق وهو الإنسان، بل تتجاوز الحكمة ذلك بالاستجابة لأدنى حاجة لأضعف

مخلوق؛لهذا تستجيب لحاجات الخلق جميعا وعلى رأسها مطلق الإنسان؛فتؤسس لنيل أعظم ما يتمناه.[29]

السعي إلى ذلك الهدف الذي يعدّ مظهرا مهمّا من مظاهر الاستجابة للمضامين الاجتماعية لرسائل النور يوجب تنمية القدرات العلمية والإيمانية وما يترتّب عليهما من تنمية شاملة للوظيفة الاجتماعية المنتظرة من المقتنع برسائل النور منهجا أولا ومضمونا ثانيا.

8 – تجاوز الهلاك:

يوجب السعي إلى إنقاذ الإنسان (مطلق الإنسان)دعوته إلى تجاوز المهلكات المادية والمعنوية، ولا يتأتى أن يعمل المسلم على تحقيق ذلك الهدف السامي إلاّ إذا تنبّه إلا أهمية الإسلام في صناعة وعيه النظري بالإنسان – ولو كان مخالفا –من جهة ونماذج تطبيق تلك الرؤية الرسالية في دنيا الصالحين من جهة أخرى، لهذا يخاطب بديع الزمان المسلم تأسيسا لذلك المعنى؛فيقول:"أيّها المسلم لا ترخِ يدك عن الإسلام الذي هو حامي وجودنا وكياننا تجاه الدمار الذي تولّده هذه النتيجة المخيفة لتقدم أوروبا، بل عض عليه بالنواجذ واستعصم به بقوة، وإلاّ فمصيرك الهلاك.[30]، وبهلاكك تهلك الإنسانية جمعاء، فدفع الهلاك عن نفسك دفعه عن الآخرين، لما يوجبه التشبّث بالإسلام من سعي دؤوب إلى دفع الهلاك عن الأسرة الإنسانية، ذلك أنّ خدمة الأسرة الإسلامية هي عين خدمة الأسرة الإنسانية

9 – تليين القلوب:

كانت رسائل النور بأسلوبها وميزاتها المستمدة من نور القرآن الكريم فرصة سانحة لمراجعة كثير من المناوئين لموقفهم منها، لذلك "لم يتمكن أعداء رسائل النور المتسترون أن يتحملوا تلك الفتوحات النورية"فحاولوا جهدهم صرف القلوب عنها أو التحريض على أهلها، فنبهوا المسؤولين في الدولة ضد الأستاذ وتلاميذه وأثاروهم عليهم، فأصبحت الحياة – مرة أخرى – ثقيلة مضجرة، إلاّ أنّ العناية الإلهية تجلّت على حين غرة، حيث أنّ المسؤولين أنفسهم – وهم أحوج الناس إلى رسائل النور – بدءوا فعلاً بقراءة الرسائل المصادرة بشوق واهتمام، وذلك بحكم وظيفتهم. واستطاعت تلك

الرسائل بفضل الله أن تليّن قلوبَهم وتجعلها تجنح إلى جانبها. فتوسعت بذلك دائرة مدارس النور، حيث إنهم بدءوا بتقديرها والإعجاب بها بدلاً من جرحها ونقدها. فأكسبتنا هذه النتيجة منافع جمة، إذ هي خير مائة مرة ممّا نحن فيه من الأضرار المادية، وأذهبت ما نعانيه من اضطراب وقلق. ولكن ما أن مرّت فترة وجيزة، حتى حوّل المنافقون – وهم الأعداء المتسترون – نظر الحكومة إلى شخص النورسي، ونبّهوا أذهانها إلى حياته السياسية السابقة، فأثاروا الأوهام والشكوك، وبثوا المخاوف من حوله في صفوف دوائر العدل والمعارف (التربية) والأمن ووزارة الداخلية. ومما وسّع تلك المخاوف لديهم ما يجري من المشاحنات بين الأحزاب السياسية، وما أثاره الفوضويون والإرهابيون – وهم واجهة الشيوعيين – حتى أن الحكومة قامت إثر ذلك بحملة توقيف وتضييق شديد عليه، وبمصادرة ما تمكّن الأستاذ من الحصول عليه من الرسائل،حاولوا توقيف نشاط طلاب النور و الحدّ من فاعليتهم في المجتمع.[31]

حققت الرسائل تليين القلوب بمنهجها المؤسس على الشفقة والعدل والحق والحقيقة والضمير؛فحرم عشاقها أنفسهم من التدخّل في المشوشات عن الفكرة الأصلية– إنقاذ الإيمان –، ومنعوا أنفسهم بشدّة من التدخّل بالأمور السياسية أو بالسلطة الحاكمة.

وقد مالوا إلى هذا الرأي بفعل تفكير استراتيجي، الغرض منه حفظ الأصل من الضياع، رحمة بالذين يقعون تحت سلطة المبتلين بالإلحاد والأمراض الفكرية المزمنة أو الوقتية.

الهوامش

1 – الفكرة مقتبسة من الموفقات/ لأبي إسحاق الشاطبي، دار المعرفة، بيروت، لبنان 2/8-13
2 – انظر تعليق الشيح عبد الله دراز على الموفقات/لأبي إسحاق الشاطبي 2/5
3 – المثنوي العربي النوري 91
4 – المثنوي العربي النوري 428
5 – صيقل الإسلام 174
6 – المصدر السابق نفسه
7 – الملاحق 148
8 – انظر سيرة ذاتية 364
9 – سيرة ذاتية 506
10 – انظر الملاحق 415
11 – انظر الشعاعات 622
12 – انظر الملاحق 94
13 – انظر الشعاعات 593
14 – بصرف النظر عن الشخصيات الفردية أو الاعتبارية أو الفكرية أو الاقتصادية أو ....
15 – انظر سيرة ذاتية 12
16 – انظر الشعاعات 601
17 – انظر الشعاعات 606
18 – انظر سيرة ذاتية 182
19 – الشعاعات 519
20 – إشارات الإعجاز 29
21 – صيقل الإسلام 536 سيرة ذاتية 99
22 – اللمعات 222
23 – انظر صيقل الإسلام 63
24 – انظر الشعاعات 406
25 – انظر صيقل الإسلام 447 سيرة ذاتية 107
26 – انظر صيقل الإسلام 333
27 – انظر سيرة ذاتية 470
28 – انظر الكلمات 197
29 – الكلمات 69
30 – صيقل الإسلام 367
31 – انظر سيرة ذاتية 383